مجنـــون . . . !

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان

بقلم الأديب م . كمال جلبى

مات الرجل الفذ الذى اهتزت له مجالس القضاء الفرنسية قاطبة ، وانحنت لموته رءوس الحقوقيين وأعضاء مجالس الشورى انحناء احترام وخضوع لوجهه المهزيل الذى كانت تضيئه نظراته الحادة .

كان عدو اللصوص والقتلة لأنه الوحيد الذى يقرأ أفكارهم الرهيبة ويكتشف أسرار الجرائم التى ارتكبوها ، فبنظرة واحدة إلى أحدهم يعرف أسراره المدفونة .

مات الرجل فى الثانية والثمانين من العمر ، فشيعت نعشه حسرات شعب كامل ؛ وسار وراءه جنود الحكومة لابسين البناطيل الحمر ؛ يتقدمهم أعاظم رجالات فرنسا ويندبه أصحاب الربطات البيضاء بدموع صادقة .

وقد وجدوا بعد موته فى غرفته الخاصة التى تحوى أوراق كبار المجرمين مذكرات بعنوان « لما ذا »

٢٠ هزيران سنة ١٨٥١ :

انتهت جلسة اليوم بعد حكمى على بلوندل بالإعدام .

لم قتل هذا الرجل أولاده الخمسة ؟ ولم تظهر علائم اللذة على هؤلاء إذا قضوا على غيرهم ؟

نعم ! نعم ! يجب أن يكون القتل لذة ، ولعلها تكون أعظم اللذات جميعها ! أليس للموت شبه عظيم بالحياة ؟

الحياة والموت ! !

كلمتان تتألف منهما قصة المجتمع ، نعم المجتمع كله ؛ أى كل ما هو كامل ؟ إذاً لما ذا يولع الإنسان بالقتل ؟

٢٥ هزيران :

فكر فى مخلوق حى ، يسير وينظر ويضحك ...

مخلوق؟!

ما هو المخلوق؟

هو كائن يحيا بحركة نظامية ، وبفكر ثاقب يدير تلك الحركة الكامنة فيه ، ولا يشغل هذا الكائن فراغاً لأن رجليه اللتين يسير بهما لا تتعديان وجه الأرض . إذن فهو حبة حياة متحركة لا أدرى م تكونت ! تبدو بسيطة كأحقر الأشياء وأتفهها كأن لا قيمة لها مطلقاً .

٢٦ هزيران :

لِمَ يعد القتل جريمة ؟ نعم لما ذا ؟

فقانون الطبيعة لا يعاقب القاتل ، والقتل كما أرى فريضة على كل كائن : فانه يقتل طلباً لعيش رغيد ؛ يقتل لأنه عرف لذة القتل؛ فالحيوان يقتل فى كل لحظة من وجوده — والرجل لا ينقطع عن القتل ، بل يقتل ليتغذى ، ويرى فى القتل ضرورة ، لذلك رأى فى الصيد لذة — وقد لا يشعر الطفل بالنشوة إلا إذا خنق صغار الحشرات وصغار العصافير التى تصل إليها يده ؛ وكل هذا لا يطفىء شهوة القتل الملتهبة فيه .

لم يكفه الحيوان فعدا على زفيقه الإنسان . وقديما كانت القرابين البشرية تقدم للآلهة ، فاستعيض عنها حديثاً بالجرائم التى جعلت القتل جريمة يكافحها القانون بالإعدام أو بالسجن !

والحقيقة أننا لا بد أن نؤدى واجبنا نحو هذه الغريزة الطبيعية التى ينتج عنها الموت الوشيك . وكثيراً ما تخف غلواؤنا عند ما نرى أمم الأرض تتطاحن ، ونسمع بشعوب تذبح أخرى ، وتكون هنالك مجازر دموية تهيم بها الجيوش؛ فترى أهالى المدن المثلين بخمرة النصر مع نسائهم وأولادهم يطالعون بانتباه على ضوء المصباح أخبار مجازرهم الفظيعة .

هل فكر أحد بأن شعوب الأرض تكره تلك الذبائح التى نسميها الحروب . أبداً ! إذاً فلم نقض عليهم بشتى أنواع الشناء ، ونلبسهم الجوخ الثمين محلى بالذهب الوهاج ، ونقلدهم أوسمة يحلون

بها صدورهم ، ثم نغدق عليهم ألقاباً عظيمة فستصبح « مودة » النساء لهم مسخرة مع إرادة الشعوب عامة ، أليس ذلك لأنهم مسخرون لقتل الإنسان ؟ إذن فالقتل نظام أودعته الطبيعة صدر الإنسان ليصيب السعادة الدائمة والشرف الرفيع !

القتل هو القانون ، والطبيعة تحب الشباب الخالد ، فتحث أبناء الحياة على ترك الحياة ، وكلما أهلكت رهطاً أحيت آخر مثله .

٢ تموز :

الكائن ؟ ! ما هو الكائن ؟

هو كل شيء ، وهو لاشيء ؛ فهو انعكاس الكون . وتصغير العالم ، هو تاريخ ، وشكله مرآة لأعماله ، فكل مخلوق محيط في هذا العالم !

إرحل وابحث عن الأجيال تر الكائن لا شيء . اصعد في زورق وابعد عن الشاطىء المزدحم بالمخلوقات فلا ترى شيئاً بعد برهة ، ومن هنا نستدل على حقارة الإنسان . اقطع أوروبا بالقطار السريع وتطلع من بابه الصغير تر رجالا لا يحسون مجهولين ، يحرثون الحقول ... ويتراكضون في الشوارع ، وفلاحين بلهاء لا يعرفون سوى فلح الأرض مع نسائهم السمجات اللاتي لاينقن سوى طبخ الحساء لرجالهن وأولادهن .

اذهب إلى الهند ، إلى الصين ، تجد الحال هي الحال : أناس يولدون ويشقون ثم يموتون دون أن يتركوا أثر نملة .

زر بلاد الزنوج الآوين إلى بيوت من الطوب ؛ زر بلاد العرب البيض القابعين تحت خيامهم القاتمة المتموجة مع الرياح تر حقيقة المخلوق المنعزل الذي نعتناه بلا شيء

والعقلاء من البدو والحضر ينظرون إلى الموت نظرهم إلى الأمر الذي لابد منه ، فلايكترثون له . والجريمة كذلك في نظر البدو الذين نشأوا وتأصلت في نفوسهم منذ نشأتهم فكرة الأخذ بالثأر كأنها شيء طبيعي . أما أهل الحضر فلا يتأثرون بهذه الجرائم وإن كانت أفكارهم لا تتعدى حدود اعتبارها أمراً طبيعياً لازماً لإطفاء شهوة القتل ، والقتل تنتقل عدواه من بيت لآخر ومن مقاطعة لأخرى .

تأمل في أشخاص العالم المجهولين !

المجهولين ؟

وصلنا أساس البحث ! ؟

قلنا إن القتل جريمة لأن القانون أحصى عدد المخلوقات وسجلها وأطلق عليها أسماء عديدة ، ثم قدسها رجال الدين فإذا هي في حمى القانون يدفع عنها عدوان القتلة السفاكين ؛ والمولود الذي لا يسجل لا يعترف القانون بوجوده

الطبيعة تحب الموت ، ولا تعاقب القتلة ؛ وهي نفسها تدافع عن الإنسان الذي جعله القانون سلعة في يده يفعل به ما يشاء ، لأنه خول لنفسه الحق فيه ، فتراه يعد مئات الألوف للحرب منتظراً أن يسقط أسماءهم من سجلاته . ولكننا نحن الضعفاء لا يمكننا تبديل أي اسم حتى ولو من سكان الأقضية ، بل الواجب علينا أيضاً احترام حياة الكائن ، مع احترام سلطة الحكومة المدنية التي تملك الهياكل البلدية .

قف وادع الله يا ابن الطبيعة !

٣ تموز :

في القتل غرابة ولذة مقرونتان بالسرور ؛ فاذا كان المخلوق الحي العامل تحت سلطتك وتمكنت من عمل جرح صغير واحد في جسده ووقفت ترى المادة اللزجة الحمراء تسيل أمام عينيك ثم يفقد ذلك الجسم الحياة ، فلا ترى بعدئذ سوى كتلة لحم لين ، بارد عديم الحركة التفكير .

١٥ آب :

لقد قضيت حياتي بالمحاكم ، أعدم ، وأميت ، بكلام رقيق يخرج من فمي ، وتنفذه المقصلة في الذين أماتوا بحد السكين ، أنا ! أنا ! ما ذا يكون مصيري إذا أصبحت كأحد هؤلاء القتلة ! ؟ من يدري ؟

١٥ آب :

من يدري ؟ لا أحد !

أيفكر امرؤ بأني قاتل ولا سيما إذا انتقيت كائناً لا فائدة تعود عليّ من حذفه ؟

١٧ آب :

الشهوة ، الشهوة ، نعم ، تملكتنى شهوة القتل كالدودة حاية فى جسمى وفى عقلى ، إنى متعطش إلى رؤية الدم وبجانبه الموت ، حيث تسمع أذناى صوتاً فظيعاً ينادينى ، ويذكرنى بآخر صرخة تخرج من المحتضر . لعل فى القتل لذة ، وخصوصاً إذا كانت الضحية كائناً مطلق الحرية واسعها يملك قلبه الهادئ الرزين بنفسه .

٢٢ آب :

لا يمكننى الصبر ، قتلت حيواناً إطاعة لتلك النزعة الحمقاء التى تغالبنى .

لخادمى « چان » عصفور فى قفص ثمين ومعلق بنافذة الدار ، وقد أرسلت خادمى ذات يوم لقضاء حاجة ، وبعد أن ذهب أخذت العصفور الصغير فى يدى فشعرت بجسمه الحار ، وبنبضات قلبه المتفاوتة ، ثم صعدت به إلى غرفتى ، وأخذت أضغط عليه شيئاً فشيئاً إلى أن أحسست بدقات فؤاده السريعة . لقد كان المنظر وحشياً مع فظاعته . كدت أخنقه . ولكن لا فائدة لأنى لن أرى دمه يسيل ، فأخذت المقص وجعلت رقبته ثلاث قطع ؛ ففغر المسكين فاه ، وأراد التخلص بكل ما أوتى من قوة ، ولكن أنى له ذلك ويداى كالحديد تطوقان عنقه ؟ لقد كان عملى يسترعى الدقة والانتباه ، فكنت أعمل بتؤدة ! !

الدم ! ... الدم ! ... ما أجمله !!

أحمر قانٍ ، صافٍ ! لقد أردت أن أخضب به لسانى ، وفعلا كان ذلك ! إن هذه الكمية القليلة لا تبعث النشوة ، لكنها لذيذة ! ضاق نطاق الوقت للتمتع بهذا المنظر ؛ فقد حان حضور خادمى .

آه ! لو كان بدل هذا العصفور ثور لكان أبهى وألذ .

يالى من شقى ! لأنى أصبحت كالقتلة : غسلت المقص بيدىّ ، وحملت الجثة الهامدة إلى مثوى أعددته لها فى الحديقة ، ودفنتها تحت شجرة « فرز » .

لا يمكن لأحد معرفة هذا المكان ، وسآكل كل يوم حبة من هذه الشجرة الحمراء .

بكى خادمى عصفوره كثيراً بعد عودته ، وظن أنه طار من قفصه . أيمكنه اتهامى ! ؟ لا ... لا ... ! !

٢٥ آب :

الأمر بسيط : ذهبت للنزهة مرة فى غابة «فيرن» لا أفكر فى شىء مطلقاً ، وإذا ولد صغير يأكل خبزاً عليه قليل من الزبدة على قارعة الطريق . وقف ليرانى مارّاً بجانبه ، وعندما اقتربت منه حيانى قائلا :

— نهارك سعيد ، يا سيدى الرئيس .

وهناك ... طرأت علىّ فكرة « قتله » فرددت عليه :

— أنت وحدك هنا يا ولدى ؟

— نعم يا سيدى الرئيس .

— ألا يصحبك أحد من أقاربك أو أصدقائك فى هذه الغابة العظيمة المقفرة ؟

— أبداً يا سيدى الرئيس .

لقد عصفت فى رأسى شهوة القتل وأثرت فى نفسى كما تفعل الخمرة برأس شاربها .

أقتربت منه ببطء خوفاً من أن يفر كما كان يخيّل إلىّ . ضغطت على عنقه بعنف ، فنظر إلىّ بعينين تحاكيان البحر عمقاً والسماء صفاء و ... لم أشعر طول عمرى بمثل هذا الإحساس الغريب الذى سيطر علىّ . لقد أمسكت يديه الصغيرتين بساعدىّ القويتين الفتوانين ، بينما كان جسمه يتطاير فى الهواء كما تتطاير ريشة الطير على سفود . ثم هدت حركته ، ووقفت أنفاسه . وهنالك أحسست بتواثب دقات قلبى العنيفة ؛ مسكين ذلك الصغير ، لقد رميت جثته فى حفرة وغطيتها ببعض الحشائش ثم عدت .

تناولت غدائى هادىء الأعصاب كأنى لم آت شيئاً ! لقد شعرت بخفة نفسى التى عادت فجددت شبابها الأول ، وقضيت سهرة الليلة عند مدير الناحية . إنهم وجدونى سريع النكتة ، خفيف الروح ، فى تلك الليلة ، ولكنى لم أر الدم ، لذلك لم أك مطمئناً تمام الاطمئنان .

٣٠ آب :

عثروا على الجثة ، والسعى جار لمعرفة القاتل ؛ أنا مطمئن فلن يرفع الستار عن المجرم .

أول أيلول:

أوقف قاضي التحقيق رجلين من عابري السبيل كانا يجوبان تلك الناحية ، وقد أخلى سبيلهما لأن الأدلة غير كافية لأدانتهما.

٢ أيلول :

بكى أهل الطفل أمامي متضرعين ! ! ألا ما أعذب قولهم !

٦ تشرين أول:

إن شهوة القتل تمتلكني وهي متأصلة في عروقي ، تجري مع دمي ، وهذا ما يدفعني إلى القتل كابن العشرين عندما يتيمه الحب

٢٠ تشرين أول :

جريمة أخرى :

ذهبت بعد الغداء ناحية النهر أتريض ، وهناك رأيت صياداً نائماً تحت شجرة حور ، وكان الوقت ظهراً . تطلعت حولي فاذا بحمول في أرض مجاورة مزروعة بطاطس ، فأخذت المحمول ، ثم عدت أدراجي إلى الصياد ، فرفعته بين يدي كالهراوة وضربته ضربة واحدة بحد ذلك المحمول قطعت رأسه . تدفق الدم الوردي الخداع بغزارة ، وانحدر إلى ماء النهر الجاري !

عدت أدراجي بخطوات مريبة ، آه ،... ! لو شاهدوني لعرفوا فيَّ قاتلا وحشياً مريعاً .

٢٥ تشرين أول :

أحدث مقتل الصياد ضجة عظيمة بين الأهلين وفي الدوائر ؛ واتهم في ذلك ابن أخي المقتول لأنه كان يصطاد معه .

٢٦ تشرين أول :

رأى قاضي التحقيق أن ابن الأخ مجرم وكل من في البلدة يعتقد ذلك ، مسكين ذلك الخل ! ! ؟

٢٧ تشرين أول :

دافع الصبي عن نفسه دفاعا ضعيفاً ، لقد حلف أيماناً مغلظة بأن عمه قتل أثناء غيابه ، وهو في البلد يشتري خبزاً وجبناً .

ولكن من يصدقه؟

١٥ تشرين الثاني :

بالموت ! بالموت ! بالموت !

حكمت على الطفل البريء ! وقد أحسن المدعي العام فكان ينطق كالملاك ، وذكر الأسباب التي دعت إلى إدانة الطفل ، وهو أنه وريث عمه الوحيد .

لقد رأست جميع جلسات محاكمته وسأذهب لأرى مصرعه .

١٨ آذار سنة ١٨٥٢ :

انتهى كل شيء هـــذا الصباح . مات الطفل بسرور وبشجاعة مما زاد في ابتهاجي ! ما أروع رأسه المتطاير ، وما ألذ دمه المتدفق كالسيل ! نعم كالسيل ! آه لو مكنوني من الاستحمام فيه والاستلقاء عليه حيث أشعر بسريانه في شعري وعلى وجهي ، وأقوم بعدها مصبوغاً بالأحمر القاني .

ما أفظع الحقيقة لو عرفوها !

والآن أستطيع أن انتظر وأن أسهر الليالي لا يثير دهشتي أحد ، ولا يعكر صفوي معكر ...

... ...

لم تنته المذكرات بعد . وهي تحوي عدة صفحات أخرى بدون جريمة جديدة . وأقر الأطباء الذين كلفوا بدرس المذكرات بأن هذا الضرب من المرض العقلي هو أقل أثر لما نفكر في عصرنا المادي الذي زاد فيه السقوط الأخلاق والجنون العصبي

(حلب) م . كمال حلبي

الوكالة العـامة

لتوزيع مطبوعات دار الكاتب المصري

في العراق

إدارة المكتبة العصرية في بغداد

لصاحبها

محمود حلمي

ووكلاءها في الألوية

تلفون ٦٤٨٠ و ٤٢٧٦ و ٩٤٧٠